

أدب المعتزلة

إلى ختمية القرن الرابع الهجري

تأليف الدكتور عبد الحليم بابع

سجما

كان رصد الظواهر الأدبية وتفسيرها وتقويمها أكثر احتياجا الى حيطة الكاتب وتجرده من رصد الظواهر المادية وتفسيرها ، لما للمادة من قوة ذاتية تفرض على من يسجلها نوعية التفسير الذى يقدمه لها .

وفى الأدب ترداد امكانية التأثير بالظروف المكانية والزمانية التى يروح تحتها من يؤدج ظاهرة او شخصية ادبية ، ومهما حاول التجرد فان طابع العصر لابد وان يلون نظره ، ومن هنا تبرز الضرورة الفنية الى اعادة عرض ترائنا عرضا موضوعيا وتقويمه من جديد تقويما لا يغفل بيئة العمل الادبى وملابساته بقدر ما يحقق - كذلك - ايجابية النقد الحديث فى النظر اليه بأسلوب جديد .

اى أنه لابد لرصد ترائنا الادبى من خطوتين بدءا : أولا : عرض الظاهرة فى بيئتها ، وثانيا : عرضها بأسلوبنا وعلى ضوء ما وصل اليه النقد العلمى ، وبذلك لا نتجنى على الظاهرة موضوع البحث كما لا نبخس قيمنا الحديثة حقها فى الممارسة والتطبيق .

اقول هذا لما نسمعه احيانا من دعاوى يحمل كبرها بعض من يزعمون الحرص على القديم حينما يصفون عليه قسسية تجاهه عن ان تناله اقلام الدراسين بالنقد والتقويم مرددين : ان لكل عصر تقاليده الادبية واننا يجب ان لا نتناول عملا فنيا الا على ضوء ما رسخ فى بيئته من قيم ، ورغم صحة هذا الزعم فى شطر منه فان هناك مغالطة ظاهرة فى شطره لآخر ، اذ ان رعاية المنتمى الزمانى والمكانى للعمل الادبى لا يحتم اغفال المقاييس الحديثة فى نظرنا الى التراث حتى نميز غثه من سمينه وننفى عنه تلك الظواهر الادبية المريضة التى ترعرعت فى أحضان قصور الخلفاء والملوك : حرصا على نهضتنا الوليدة وتغذية لثقافتنا بكل ما هو طيب من قديمنا .

جزء من هذه الغاية هو ما هدف اليه الدكتور عبد الحكيم بابع من كتابه « أدب المعتزلة » ، لما للمعتزلة من مكانة ملحوظة فى تاريخ الحركات العقلية فى الاسلام وما كان لهم من اثر عميق فى دعم الفكر الاسلامى بتيارات ثقافية جديدة و « لنرى الى اى حد كان لاتجاهاتهم المذهبية انعكاسات على أعمالهم الادبية » على حد تعبير المؤلف فى مقدمة كتابه .

والمؤلف يتقدم الى بحثه مزودا بماض جاد فى دراسة شخصية بارزة من شخصيات المعتزلة تلك هى : الجاحظ ، وقد أمكنه ان يستشف من بين ملامح هذه الشخصية قسما ذلك الدور الخطير الذى لعبته فى تطوير النثر الفنى ، « وقد كان هذا دافعا الى متابعة دراسة هذا الموضوع فى نطاقه الواسع » ويعنى المؤلف بذلك كتابه الذى بين ايدينا ، والذى قسمه من حيث المنهج الى : تمهيد ثم بابين رئيسيين ثم خاتمة .

فى التمهيد تحدث عن نشأة الفرق الاسلامية وبيئاتها وأهم المبادئ التى قامت عليها ، محاولا ان يستصفى من بين طوفان الروايات العصب الحقيقى فى تكوين كل منها : كل هذا ليصل الى اجابة شافية لذلك التساؤل : ما هو الاثر المباشر وغير المباشر لظهور الاحزاب الاسلامية - كظاهرة مستحدثة فى الحياة السياسية - فى الادب العربى : رفدا بموارد جديدة ، وانضاجا لأصيله ، وتوجيها له بصفة عامة .

اما الباب الاول : فقد قسمه المؤلف الى فصلين متميزين ، فى الفصل الاول حديث عن التيارات الثقافية التى غمرت البيئة العربية ابتداء من القرن الثانى الهجرى ، وتتبع للمنايع الحقيقية لعقلية المعتزلة ، وتفسير لما تميزت به من خصائص فكرية وثقافية ، وفى سبيل هذا يناقش المؤلف الميراث الثقافى والاجتماعى للبلاد المفتوحة ، فى ظل الاسلام ، والوالى ومكانتهم فى التكوين السياسى للدولة المسلمة فى عهدي بنى أمية وبنى العباس ثم حركات الترجمة من الفارسية والهندية واليونانية وائر ذلك كله فى الفكر الاسلامى .

ولعل المؤلف احس بما قد يبدو من بعدد بين محتويات هذا الفصل وجوهر البحث فبرر هذا بقوله « اذا كانت عقلية المعتزلة قد اصطبغت بصفة ثقافية خاصة يتمثل فيها مزيج مختلف من التيارات الثقافية والفكرية فانه لا بد من معرفة هذه التيارات وأجناسها وما هو الدور الذى أسهمت به فى بناء هذه العقلية » .

وفى الفصل الثانى من الباب الاول تتبع المؤلف خطوات المعتزلة نشأة وامتدادا ، وناقش جملة من الروايات عن البداية التاريخية لمذهبهم ومدى ارتباطهم بمن عداهم من الفرق ، والعناصر الأساسية لمذهبهم وعلاقتها بالتيارات الدينية التى غزت البيئة العربية من مسيحية ويهودية ، وقد استطاع المؤلف ان يرجع بعض هذه العناصر الى مصصادرها من غنوصية واشراقية وغيرها .

نماذج لم تكن - من حيث الجودة - في ذلك المستوى الذي اطلنا عليه المؤلف في نثرهم ، كما عرض للمدح المعتزلى وانتهى الى تقرير ضحالة ما وصل اليها منه ، غير انه تحدث - بكثير من الإعجاب - عن فخر المعتزلة وما تخلله من حماس دينى ووهج عقائدى .

ونحن نعتقد أن المؤلف الفاضل قد كبد نفسه مشقة - أية مشقة - في محاولة إقامة بناء شعري ضخم منسوب الى المعتزلة : لقد كان يكفيهم من جهده ان وقفنا على هذا النهج الجدلى الذى استحدثوه - غير أن صلة المودة التى يعقدها كل باحث مع موضوعه قد اجتذبت المؤلف الى دائرتها فاذا به يستحسن نماذج لا اظنه كان يستحسنها لولا إعجابه أساسا بابداع العقلية المعتزلة : وصل به هذا الإعجاب حد أن علق على بضعة أبيات لفظية « للنظام » ص ٣٣٤ بأنها « رائعة » وعلل لهذه الروعة بأن الشاعر ينتزع تلك الأبيات من أعماق بعيدة في تصوره ، وأنه بلغ فيها من الاغراب أبعد حد ممكن والصورة الشعرية تعتمد أساسا على الاغراب في الخيال !!

وفي ص ٣٣٨ يشير الى أن للنظام أبياتا رقيقة في الغزل ينهب فيها مذهبه في الاغراب منها .

ذكرتلك والراح في راحتي
فثبت السدوم بدمع غزير
فان ينفد فرط الاسى
بكتك الحشا بدموع الضمير

فتصور ... أية رقة !!! هذا مع أن المؤلف نفسه قد اشار في مقدمة هذا الفصل الى تعاليل سديد لسطحية ما نسب الى المعتزلة من شعر مفسرا ذلك بأن طبيعة مهمة المعتزلة وتكوينهم الثقافى لم تكن لتتيح لهم التفوق الفنى في الشعر كما أتاحت لهم ذلك في النثر ، فالجاحظ - مثلا - يتربع - في نثره - على القمة ولكنه في الشعر يهوى الى معان سطحية لا تتكافأ مع عمق ثقافته وخصوبة فكره ويستشهد المؤلف على هذا بأبيات « للجاحظ » ينظر فيها نظر الخبير وينقدها نقدا موضوعيا يطلنا على ذلك الغواء الفنى الذى كان يعانى به الشعر المعتزلى .

هنا ونلتقى بالخاتمة التى يلخص فيها الكاتب بحثه منتهاها الى بضع نتائج عامة منها : ان مذهب الاعتزال تأثر في اصوله بعناصر لاهوت مسيحية ويهودية وأنهم كانوا أول دعاة في الاسلام الى منهج النظر العقلى كما أنهم كانوا أول من وضع الأسس لكثير من العلوم العربية وفي مقدمتها البلاغة ، وأنهم طوروا النثر تطورا ضخما وأن شعريتهم لم يرتفع - كثرة واجادة - الى مستوى نثرهم .

ومن خلال هذا التحليل يبدو أن المؤلف قد اختار لكتابه - من حيث الطريقة - المنهج التاريخي في الدراسة الادبية والذي يقوم على أساس من تتبع النتائج الادبية على مدار الزمنى ، وهو منهج كتب به كثيرون ولكنه لا يعدو أن يكون فصلا واحدا من علم مناهج البحث الحديث ، فهناك غيره : المنهج النفسى ويعتمد على دراسة الادب من خلال نفسيات

كما تحدث في هذا الفصل نفسه عن الحرية العقلية في الاعتزال ومكانتها في الفكر الإسلامى وأثرها في خلق روح جديدة لامت بين الثقافة الاسلامية والثقافة الأجنبية وذاقت عن الاسلام بسلاح خصومه ، ووضعت العقل في مكانه الصحيح من الشريعة وقومت كثيرا من الانحرافات التى لحقت ببقاء الديانة . وبلغت قارىء الكتاب باهم عناصره متمثلا في الفصل الأول من الباب الثانى : حين ناقش المؤلف نثر المعتزلة مقيما من بين انقاض الكتب الكثيرة التى وضعها المعتزلة وأضاعها الزمن : ملامح منهج معتزلى جديد فى أسلوب الكتابة .

وقد أبرز المؤلف خصائص هذا الأسلوب فى حديثه عن (الجدل) عند المعتزلة واضعا أصابعه على طريقة فى النثر العربى لم تعرف قبل المعتزلة وأما كانت أثرا مباشرا لهذا اللقاح المنطقى والفلسفى الذى عرفته العقلية العربية فى العصر العباسى .

وقد اعتمد هذا الأسلوب - كما قرر المؤلف - على طريقة التقديم والاستنتاج : يقدم المعتزلى عدة مسلمات ثم يصل منها الى نتيجة لا يتوقعها خصمه ولا يمكنه تكذيبها .

وبالإضافة الى هذه الطريقة - الجديدة لحينها على النثر العربى - لم يغفل المؤلف الشكل الأدبى فى نثر المعتزلة وذلك السيل التعبيرى من المصطلحات الفلسفية والمذهبية الذى عرف طريقه البنا على يد المعتزلة .

وقد فطن المؤلف الى أهمية هذه الظاهرة الاسلامية - ظاهرة الجدل - فإشار فى مقدمة الفصل ص ١٨٠ الى أن « خصائص الأدب المعتزلى التى يمكن أن تكون سمة له وحده والتى هي بلا شك صدى مباشر لثقافتهم يبحث عنها فى أبرز لون أدبى نراه عندهم وهو المحاوره والجدل » . وقد التمس نموذجا تطبيقيا لهذه الظاهرة فوجده فى علم من أعلام المعتزلة : هو أبو اسحاق النظام الذى يعد نموذجا للعقلية المسلمة فى ذروة تفتحها وطواعيتها للنمو والتأثر بروافد الثقافات المختلفة ، ويقدّر ما كانت محاولة المؤلف هذه موفقة كانت مبالفته فى التماس خصائص أدبية متميزة من خطاب المعتزلة ومواعظهم ، ويبدو أن ضياع كثير من إنتاج المعتزلة فى هذين الميدانين جعل المؤلف يدور بين نصوص ملساء لا تتميز فيها طابعا خاصا بأصحابها ، مما حدا به الى التقييب عليها بما لا يفيد استحسانا أدبيا وان أفاد إعجابا بما فيها من عاطفة وحماس دينى ، وشتان بين الحماس الدينى المجرد والتميز الأدبى بما له من خصائص وانطباعات لابد من توافرها أساسا .

ويعود الموضوع - بين يدي المؤلف - الى إشرافه حينما يتحدث فى الفصل عينه عن موضوعات جديدة دخلت على أيدي المعتزلة الى ميدان الكتابة العربية ، فقد عالج المعتزلة - بكثير من الطرافة والتوهج - موضوعات مثل : الحكمة فى تخالف النزعات والبول ، علاقة الذكاء بالجنس وغير ذلك مما كان لحينه غريبا على عقول العرب وأقلامهم .

أما الفصل الأخير فقد خصصه المؤلف لدراسة شعر المعتزلة فعرض أولا لدراسة الغزل عندهم مستعرضا بفسحة

رجاله ، وهناك المنهج الجنسي : ونعنى به دراسة الأدب على أساس الجنس كما أن هناك النظرية الاقليمية فى دراسة الأدب ، ونظرية دراسة الفنون الادبية وعديد من مناهج البحث الحديثة فى الأدب ، ويستقطب مزاياها جميعها : منهج دراسة الأدب كظاهرة ، اذ يستفيد هذا المنهج من دراسة البيئة والثقافة والجنس والفن الأدبى مجتمعة .

ورغم توفيق المؤلف فى المزاوجة بين دراسة ادب المعتزلة كتاريخ وكدرسة ادبية : رغم هذا فقد ادت به حدود دراسته الى استعراض بعض المشاكل التى كانت تبدو بعيدة عن جوهر الدراسة بعض البعد ، وفى فصل كامل يتحدث المؤلف عن بيئة البلاد التى فتحها المسلمون وما كان يضطرب بها من ثقافات ولا ينسى أن يعرض فيه ايضا لظاهرة الزندقة .. كل هذا ليقدر ان المعتزلة فى ثقافتهم كانوا نتاج تيارات فكرية مختلفة .

وملاحظة اخرى عبثها يقع على التحديد الذى رسمه المؤلف لدراسته ، ذلك أن أسلوب التتبع فرض عليه ايراد حشد من الروايات أو الآراء فى بعض مراحل البحث لكى يستصوب احداها أو احدها دون أن يترتب على اختلافها تفاوت فى نتائج البحث ، ومن نماذج هذا تحقيقه لمبدأ تاريخ الشيعة ص ٣١ ، وتحقيقه لمفهوم المصطلح ذاته ص ٣٥ .

ورغم أننا فى الدرس الأدبى نتجه أساسا الى الخصائص الفنية للعمل الأدبى ولا نعنى بالموضوع الا فى حدود ما يكون سمة من سماته .. رغم هذا فقد دل تقسيم المؤلف لأدب المعتزلة على أساس اغراضه .. دل على أنه يضع الموضوع فى المقام الاول ، فهو يدرس خطبهم على حدة ثم مواظهم وجدلهم ، وفى الشعر يدرس الفزل ثم المدح ثم الفخر وهكذا ، مع أن مؤلفنا الفاضل اول من يعلم مقدار التفرير الذى يتعرض له الباحث حينما يهتم فى درسه على مثل هذا التقسيم .

ونحن نعلم أن النقد العالمى يهدف الى جعل المقياس الأدبى من حيث ذاتيته واتفاق الكلمة عليه كالمقياس العلمى أو يقرب منه الا أننا نؤمن - حتى يتحقق هذا - بنسبية ذلك المقياس ،

فاتنا - مثلا - لا اعتقد بأن أبا الصاهية فى زهدياته كان يرتكز على أسس علمية وفلسفية ص ٨٥ ، بل لا اعتقد أنه كان زاهدا على الإطلاق - بل أومن أنه كان يربح تحت ثقل نفسى يفرض عليه ما يسمى فى علم النفس « بالعرض » أو الاستعراض الذى قد يكون فنيا كما يكون ماديا .

كذلك اعتقد أن المعتزلة لم يكونوا هم مؤسسى علم الجمال العربى أو البلاغة العربية ص ٢٢٠ .. اعتقد من قبل (الجاحظ) كان هناك أبو عبيدة ، فى « مجاز القرآن » وكان هناك ابن قتيبة ، فى « تأويل مشكل القرآن » . وغيرها .

ويبدو أن روح العصر هى التى حدث بالمؤلف الى تحميل بعض المصطلحات فوق طاقتها ، فاصطلاحات كالشكل والمضمون وغيرها من مستحدثات النقد المعاصر لا ينبغى اطلاقها مثلا على ما كان يدعو القدماء ، باللفظ والمعنى ص ١٩٧ ، ص ٢١٦ .

وأخيرا : لا يفوتنى أن أشير صراحة - وإن كنت قد ألحت الى ذلك فى غصون التحليل - الى توفيق المؤلف فى ارتداد عنرية هذه الناحية من ترائنا واستشماره لحقبة من أكثر عصورنا الادبية تفتحا وجيشانا وخصوبة كما لا أنسى المامه الدقيق بمسارب الثقافات الأجنبية الى قيمنا ، وأنا اعتبر الفصل الاول - الذى خصصه لهذا الهدف - اعتبره فى حد ذاته وثيقة فكرية تكشف عمق وامتلاء ترائنا القديم .

وإن قارئ الكتاب ليخرج منه وقد حفرت فى باطنه صورة فنية رسمها المؤلف لشخصية من أجل شخصيات المعتزلة تأثيرا وتأثرا تلك هى شخصية النظام - اقرأ الفصل الاول من الباب الثانى - كما أن إشارة المؤلف الى ظاهرة الوصف الحسى وتفير مفهومه على يد المعتزلة .. إشارة كهذه فى منتهى اللامحبة ، وإن كانت عابرة .

تهنئة لبراعة المؤلف التى التقطت موضوعها بشفاافية الاديب ودقة العالم ، وتحية الى الجهد ايا كان مآناه .. تحية .

فتوح احمد